بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الرابع عشر

٢٢- ٢٥ شعبان ١٤٢٨هـ/ ٤- ٧ أيلول ٢٠٠٧م

محبة الناس لرسول الله ﷺ

الشيخ أبو بكر الملباري

عمّان - المملكة الأردنية الهاشمية

محبة الناس لرسول الله ﷺ

الشيخ أبو بكر الملباري

أخذت القلم أكتب هذه المقالة في الوقت الذي لا زالت نبرة المواجهات فيه مرتفعة بين العالم الإسلامي والعالم الغربي فيما يتعلق بالهجوم على شخصية النبي ﷺ.

ولقد كانت إساءات بعض الغرب تجاه الرسول ﷺ موضع نقاش وجدال في الفترة الماضية الأخيرة، وكانت قد ارتفعت موجات تسونامي للمواجهات والاحتجاجات فيما يتعلق بتلك الإساءة.

وعلى الرغم من أن هذه الهجومات والإساءات إلى النبي الأكرم ﷺ تكررت كثيراً بصور متعددة وأشكال متنوعة في الأعوام المنصرمة ومنذ أن بزغ فجر الإسلام على أفق هذه البسيطة؛ إلا أنها لا تزيده ﷺ إلا تمكناً في قلوب الناس وقبولاً وإقبالاً على تعلم سيرته ومعرفة شخصيته وتعاليمه ورسالاته وتبعثهم على الاهتداء بما جاء به ﷺ.

حقاً؛ نحن نعيش زماناً كثرت فيه شارات التعدّي على الإسلام ورسوله الأكرم ﷺ ومقدسات أمته التي غدت من أكثر الأمم شتاتاً على كثرة أسباب توحّدها لو تيقظ أبناؤها، وتمسكوا بحقيقة دينهم، ونصروا أهدافه السامية وأتاحوا لتشريعاته أن تحكم ولسنة نبيهم ﷺ أن تسود بينهم سياستها في أسلافهم الذين قادوا عالمهم بالإسلام إلى سبيل النور وأضاءوا طريق الحضارة التي تحفظ الإنسانية حتى استطاعوا أن يسودوا العالم وأن يفتحوا العواصم؛ فخضعت لهم الأكاسرة والقياصرة ودانت لهم رقاب الملوك والوزراء . ! !

وهوس الإساءة إلى النبي محمد ﷺ قد كثرت في العصر الراهن، وكائناً ما كان لقد طفح الكيل وأدرك السيل الزبى . !

وحان الأوان للمسلمين أن يلمّوا شعثهم ويرجعوا إلى ما كان أسلافهم من اتباعهم للرسول ﷺ ومحبتهم له.

ومحبة رسول الله ﷺ فرض أوجبه الله تعالى على كل مسلم ومسلمة، فقد قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة: ٢٤].

وإن من حقوقه ﷺ علينا الذي أنقذنا الله به من النار وهدانا به من الضلالة محبته ﷺ محبة قلبية صادقة ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"[1]. فحق على كل مؤمن بالله واليوم الآخر أن يحب النبي ﷺ محبة يتجلى فيها إيثار النبي ﷺ على كل محبوب من نفسٍ ووالدٍ وولدٍ والناس أجمعين. فمحبة النبي ﷺ من أعظم واجبات الدين وهي فرع من محبة الله تعالى وتابعة لها.

ولمحبة الرسول ﷺ علامات ودلائل تُظهر حقيقة المحبة وصدقها؛ ومن أبرز هذه العلامات متابعته ﷺ في أعماله وأقواله وأخلاقه وجميع شأنه قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١]. فمن أحب رسول الله محبة صادقة أوجب له ذلك تمام المتابعة فتجد المحب الصادق في محبة النبي ﷺ معظماً لسنة النبي ﷺ عاملاً بها حريصاً عليها في دقيق الأمر وجليله، لا يعدل بسنة النبي ﷺ وهديه شيئاً من الأقوال أو الأفعال.

وأسلافنا ﷺ من الصحابة والتابعين ومن بعدهم كانوا يتسابقون في محبتهم للرسول ﷺ وفي متابعتهم له حتى شهد بذلك الكافر المجاهر بالعداوة آنذاك؛ وسأل أبو سفيان بن حرب – وهو على الشرك حينذاك – زيد بن الدَّثِنة –رضي الله عنه– حينما أخرجه أهل مكة من الحرم ليقتلوه وقد كان أسيرا عندهم: "أنشدك بالله يا زيد؛ أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وإنك في أهلك؟" قال: "والله ما أحب أن محمداً

[1] متفق عليه

الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي !" . فقال أبو سفيان: "ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً"[1] .

وهذه الواقعة لخير شاهد على صدق حبهم له ﷺ ، وأنهم كانوا يتلذذون بأصناف العذاب في سبيل نجاة النبي ﷺ وسلامته من الأخطار . بل إنهم لا يكادون يتصورون راحتهم وهناءهم حال إيذائه وتعذيبه .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حيصة، قالوا: قتل محمد ، حتى كثرت الصوارخ في ناحية المدينة، فخرجت امرأة من الأنصار متحزِّمة، فاستقبلت بابنها وأبيها وزوجها وأخيها . لا أدري أيهم استقبلت به أولاً، فلما مرّت على أحدهم قالت: من هذا ؟ قالوا: أبوك، أخوك، زوجك، ابنك !، تقول: ما فعل رسول الله ﷺ ؟ ، يقولون: أمامك، حتى دفعت إلى رسول الله ﷺ فأخذت بناحية ثوبه، ثم قالت: "بأبي أنت وأمي يا رسول الله؛ لا أبالي إذا سلمتَ من عطب"[2] .

وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: أتيت رسول الله ﷺ يوم أحد بالماء فقال: اذهب به إلى طلحة فذهبت به إليه، فرأيته قد وقع صريعا وينزف الدم من جراحاته فرششت عليه من الماء حتى حصل له بعض الإفاقة فقال: ما فعل برسول الله ؟ قلت: هو بالعافية وهو أرسلني إليك؛ قال: الحمد لله فكل مصيبة بعده هيّن[3] .

ولم تكن هذه المحبة ضربا من التعصب للسيد المقدم في الأمة ولا مجرد تقدير لقائد متفرد في الحكمة؛ بل هي ركن أصيل في اعتقاد كل مسلم مؤمن . ولقد قال الرسول نفسه ﷺ : "لا يؤمن الرجل حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين"[4] .

[1] البداية والنهاية ٤/٦٥ .

[2] [الطبراني في الأوسط ٨/٢٤٤، مجمع الزوائد ٦/١١٥، البداية والنهاية ٤/٤٧] وفي رواية قالت: "كل مصيبة بعدك جلل" أي يسيرة وهينة . [ابن هشام في السيرة ٣/٤٣، البداية والنهاية ٤/٢٨٠] .

[3] [تاريخ الخميس ١/٤٣١] .

[4] متفق عليه.

وإذا كانت محبة رسول الله ﷺ واجبة على كل مسلم ومفروضة عليه، فإنها لدى صحابة الرسول ﷺ كانت أشد وأقوى؛ فلقد أحب الصحابة رضوان الله تعالى عليهم الرسولَ ﷺ حُباً فاق كل حب فآثروه على المال والولد وآية ذلك اتباعهم لتعاليمه ﷺ وابتعادهم عن نواهيه.

وأخرج الإمام البخاري رضي الله عنه في صحيحه عن عبد الله بن هشام قال: "كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال النبي ﷺ لا؛ والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال له عمر: "فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي" فقال النبي ﷺ الآن يا عمر".

لذا كان الصحابة رضي الله عنهم يتسابقون في محبته ﷺ والذَّود عنه.

وها هو ذا الصحابي الجليل أبو دجانة رضي الله عنه يُتَرِّس على الرسول ﷺ بظهره دفاعاً عنه حين حمي الوطيس في غزوة أحد والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك رضي الله عنه.

وهذا علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه يعرض نفسه للأعداء فداء لمحمد بن عبد الله ﷺ حين رقد في فراشه ليلة الهجرة؛ وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه رفيق هجرته يغاير في جهات مسيره معه مخافة مفاجأة العدو؛ وهو الذي دخل الغار أولا وقبل الرسول ﷺ حتى لا يصيب الرسول ﷺ سوء.

ونرى أمثال هذا مما تبين مكانة الرسول ﷺ ومحبته في قلوب الصحابة رضي الله عنهم. وقد عبرت عن هذه المحبة أفعالهم وأقوالهم التي تتعاظم على الحصر؛ ورسخ القرآن الكريم هذه المكانة بتشريع نسق خاص في التعامل مع الرسول ﷺ على نحو ما نجده في القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١-٣].

ونقل القرطبي عن قاضي أبي بكر بن العربي قوله : "حرمة النبي ﷺ ميتاً كحرمته حياً ، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه ، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألاّ يرفع صوته عليه، ولا يُعرض عنه ،كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفّظه به" .

ومما يظهر انفعال الصحابة رضي الله عنهم بهذه الآيات ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه بإسناده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: "لَمّا نزلت هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الحجرات: ٢] إِلَى آخِرِ الآيَةِ . جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: أنا من أهل النار . واحتبس ثابت ابن قيس عن النّبي . فسأل النبيّ سعد بن مُعاذ فقال: يا أبا عمرو ما شأن ثابت ؟ أشتكى ؟ قال سعد : إنه لجاري . وما علمت له بشكوى . قال فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ فقال ثابت: أُنزلت هذه الآية ولقد علمتم أنّي من أرفعكم صوتاً على رسول الله . فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ . فقال رسول الله: بل هو من أهل الجنّة"[1] .

لقد خاض الرسول ﷺ في سبيل نشر الدعوة المباركة حرباً شرسة دائمة مع الكفار، وأخذت الدعوة المحمدية تغزو معاقل الشرك وتجتث عروش المشركين، فقابلها الكفار بمحاولة إيذاء النبي ﷺ والتعرّض له في كل مكان، ولم يسلم من إيذائهم حتى وهو قائمٌ يصلي في محرابه، وكان المسلمون يدافعون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وينافحون عنه، ويبذلون أنفسهم فداء له .

فهذا أبو بكر الصديق خليل رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في ناحية من نواحي المسجد الحرام إذا به يبصر عقبة بن أبي معيط أحد رؤوس الكفر متجهاً صوب رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يصلي ؛ فأخذ أبو بكر يترقّبه فإذا هو يخلع ثوبه ويضعه حول عنق رسول الله ﷺ ليخنقه ، فما أن رأى ذلك حتى انطلق كالسهم تجاه هذا الكافر، ثم أخذ بمنكبه ودفعه دفعة شديدة، ونجا رسول الله ﷺ من كيده ، ثم أخذ يردد الآية الكريمة : ﴿ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾ [غافر: ٢٨] .

[1] رواه مسلم.

ومن صور إخلاصهم رضوان الله عليهم في محبته عليه الصلاة والسلام، السعي والتنافس في محبته، فكل منهم حريص أن يفوز بحب رسول الله ﷺ له أكثر من غيره وهكذا اجتهدوا رضوان الله عليهم في محبته وإخلاص النية في وُدّه.

روى أسامة بن زيد عن أبيه قال: "اجتمع علي وجعفر وزيد بن حارثة فقال جعفر: أنا أَحَبُّكم إلى رسول الله ﷺ، وقال علي: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ، وقال زيد: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ نسأله قال أسامة: فجاءوا يستأذنونه. فقال: اخرج فانظر من هؤلاء فقلت: هذا جعفر وعلي وزيد فقال: ائذن لهم فدخلوا، فقالوا: يا رسول الله من أحب إليك؟ قال: فاطمة، قالوا: نسألك عن الرجال فقال: أما أنت يا جعفر فأشبه خلقك خلقي وأشبه خلقي خلقك وإنك مني وشجرتي، وأما أنت يا علي فختني وأبو ولدي وأنا منك وأنت مني، وأما أنت يا زيد فمولاي ومني وإلي وأحب القوم إلي "[1].

ولقد كان الرسول ﷺ باب معرفة الله تعالى ومعرفة شرعه وتفصيل تكاليف أوامره ونواهيه لعباده على النحو الذي تترجمه كلمة التوحيد "لا اله إلا الله، محمد رسول الله" وكان اتباعه هو باب الفوز بمحبة الله ورضاه: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[آل عمران: ٣١- ٣٢].

لكن العمل لا يكون طاعة بمجرد الاتباع حتى ينضم إليه الرضا والتسليم: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ٦٥].

وروي عن أبي هريرة: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به"، أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات وقد صححه النووي في آخر الأربعين.[2]

[1] مسند أحمد.

[2] فتح الباري.

وكما جمع الله بين طاعته وطاعة رسوله جمع بين محبته تعالى ومحبة الرسول ﷺ وقرع من يقدم على محبة الله والرسول ﷺ محبة شيء من الخلق مهما كانت مكانته في نفس العبد: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

روى البخاري ومسلم رحمهما الله عنْ أَنسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: "ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمان: أَنْ يَكونَ اللَّهُ ورسولُه أحبَّ إليهِ مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاّ لله، وأنْ يَكرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ كما يكرَهُ أنْ يُقذَفَ في النّار"[1].

وكيف لا نحب هذا الرسول الأمين وهو الذي أنقذنا من الظلمات التي سادت العالم بأسره إلى نور الهداية.

ومن منا لا يعرف أن العالم فيما قبل ١٤ قرناً كان يتخبط في ظلام البداوة والجهالة والقساوة، وكان ذلك القرن من أحط أدوار التاريخ ومن أشدها ظلاما ويأسا. وكان يسود العالم كله وضع قاتم من الفواحش والظلم والجور والعصبية القبلية؛ وكان العرب آنذاك منهمكين في الغارات وقطع الطرق على القوافل والحروب الدائبة الدامية التي سقت أرض الله بدماء الآلاف من النفوس البشرية البريئة المثيرة لأجل أمور تافهة وبغير غرض سام وبدون مبرر كاف، وظلوا يتعاركون ويتصارعون فيما بينهم بحجة العصبية القبلية. وهانت عليهم الدماء؛ وبلغت ببعضهم القساوة والحمية المزعومة إلى وأد البنات. ولم تكن المرأة في نظامهم إلا سلعة تباع ومتاعا يورث وآلة لتسكين شهواتهم البهيمية.

وكان الأقوياء منهم لا يهمهم إلا الجور والبطش والاستيلاء والاستبداد والاستعباد؛ ورجال الثروة كانوا في شغل شاغل بالبذخ والتنعم؛ وأما الفقراء والطبقة الكادحة فكانت ظهورهم مثقلة بأنواع الضرائب

[1] متفق عليه.

والإتاوات وبألوان العبودية والرق- وكانوا مرغمين على توفير وسائل اللذة والترف للأمراء والأثرياء وإشباع متطلباتهم المشروعة وغير المشروعة كالبهائم، وكانوا مسحوقين بين حجري رحى طمع الحكام والأمراء .

وهناك – في ذلك العالم الذي سادته الفوضى الفكرية والقلق النفسي و الذي كانت الإنسانية فيه في طريق الانتحار التدريجي، وفي تلك الأمة الأمية التي تعيش في عزلة عن الحضارة والتمدن ونائية عن النور والمعارف- بعث الله رسوله عليه أفضل الصلاة والتسليم نبيا أميا صادقا أمينا لكي ينقذ البشرية من عذاب كان يأكلها منذ قرون طويلة، ويبشرها بالنعيم المقيم في الفردوس العظيم ويحذرها من العذاب الأليم يوم القيامة ويخرجها من الظلمات إلى النور: ﴿ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

وكانت شبكة عبادة غير الله آنذاك منبثة في أرجاء الأرض في أرض يعبد أهلها الأصنام والأوثان المنحوتة بيدي الإنسان، وفي مكان آخر تُعبد فيه الأشجار والأحجار والحيوانات .

وفي الجملة ساد العالم كله وضع قاتم من التبعثر والفوضى وعدم الأمانة . فاقتضت حكمة الله أن تطلع هذه الشمس من أفق جزيرة العرب الذي كان أشد ظلاما وأشد حاجة إلى النور الساطع لكي تبدد الظلام وتملأ الأرض نورا وهداية .

والحقيقة التي لا مراء فيها أن هذا الدور الذي نعيشه وما يليه من الأدوار التاريخيّة القادمة كلها في حساب البعثة المحمدية ودعوته العامة الخالدة وجهوده المشكورة المثمرة؛ لأنه رفع أولا هذا السيف المسلّط على رقاب الناس الذي كاد يقضي عليهم، ثم أغناها بمنح غالية ومعطيات خالدة وهدايا طريقة جديدة بعث فيها الحيوية والنشاط والهمّة والطموح والعزّة والكرامة والهدف الصحيح والغاية النبيلة واستهل بفضل هذه المنح والمعطيات عهد جديد من السمو الإنساني والثقافة والمدنية والربّانية والإخلاص وإنشاء الإنسان وتكوينه الخلقي والاجتماعي .

لقد تغيرت الدنيا بعد بعثة النبي محمد ﷺ وبفضل تلك التعاليم السامية، كما يتغير الطقس وانتقلت الإنسانية من فصل كله جدب وخريف وسموم وحميم إلى فصل كله ربيع وأزهار وجنات تجري من تحتها الأنهار . تغيرت طباع الناس وأشرقت القلوب بنور ربها وعم الإقبال على الله واطلع الإنسان على طعم جديد لم يألفه، وذوق لم يجربه وهيام لم يعرفه من قبل .

انتعشت القلوب الخاوية الضامرة، الباردة الهامدة، بحرارة الإيمان وقوة الحنان، واستضاءت العقول بنور جديد ، وسكرت النفوس بنشوة جديدة، وخرجت الإنسانية أفواجاً تطلب الطريق الصحيح ومحلها الرفيع وتحن إلى مكانتها السامقة العالية فلا ترى أمة من الأمم وبلداً من البلاد إلا وهو يريد السباق في هذا المضمار ويتنافس فيه، فما ترى العرب والعجم ومصر والشام وتركستان وإيران والعراق وخراسان وشمالي إفريقيا والأندلس وبلاد الهند وجزائر شرق الهند ، إلا سكارى هذا الحب العلوي والفيض السماوي وعشاق هذا الهدف السامي وفقراء هذا الباب العالي .

إنه رسول الله ﷺ سيد ولد آدم وأكثر الناس تبعاً يوم القيامة وأكرم الأولين والآخرين على الله، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع وأول من يقرع باب الجنة فيفتح الله له، وحامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه، وهو الذي قال عليه الصلاة والسلام: "نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة، وإني قائل قولاً غير فخر، وأنا حبيب الله وأنا قائد المرسلين ولا فخر، وأنا خاتم النبيين ولا فخر، وأنا محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً فأنا خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً ، وأنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا وأنا قائدهم إذا وفدوا وأنا خطيبهم إذا نصتوا وأنا شفيعهم إذا حبسوا وأنا مبشّرهم إذا يئسوا ، ولواء الكرم والمفاتيح يومئذٍ بيدي ولواء الحمد يومئذ بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي يطوف علي ألف خادم كأنهم بيض مكنون، وإذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر" لولاه لما خلق الله سبحانه الخلق ولما أظهر الربوبية وكان نبيا وآدم بين الماء والطين .

فلا جرم أن يكون مصدق مثل هذا الرسول النبي الكريم – سيد البشر عليه الصلاة والسلام خير الأمم البتة، ويكون قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] نقد وقتهم ووصف حالهم ويكون مكذبوه عليه الصلاة والسلام شر بني آدم، ويكون قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ [التوبة: ٩٧] علامة حالهم فيا سعادة من يشرف باتباع سنته السنية ومتابعة شريعته المرضية، واليوم يقبل الأمر اليسير المقرون بتصديق حقية دينه عليه الصلاة والسلام مكان العمل الكثير ولا غرو فيه، ألا ترى أن أصحاب الكهف نالوا ما نالوا من الدرجات بواسطة حسنة واحدة وهي الحجرة والفرار عن أعداء الله تعالى بسبب نور اليقين الإيماني وقت استيلاء المعاندين، وهذا كما أن العسكر إذا صدرت عنهم حركة يسيرة حين غلبة الأعداء واستيلاء المخالفين تكون من القبول والاعتبار بمرتبة لا تبلغها أضعاف تلك الحركة وقت الأمن والاطمئنان، (وأيضاً) إنه ﷺ لما كان محبوب رب العالمين لا جرم يبلغ أتباعه صلى الله عليه وسلم مرتبة المحبوبية بسبب المتابعة، فإن المحب إذا رأى شيئاً من شمائل محبوبه عند شخص يحب ذلك الشخص بالضرورة لملابسته بشمائل محبوبه وأخلاقه وقس على ذلك حال المخالفين.